فصل في ذكر ملوك الصّين في سالف الدَّهر والحين[١]

قال الجوهريُّ: والصِّينُ بلدٌ، والصَّواني: الأواني، منسوباتٌ إليه[٢].

وقال غيره: اسم رجل[٣].

وقال علماء السير: لما قسم فالغُ بن غابر بن أرْفخْشَذ بن سام بن نوح عليه السلام الأرضَ بين ولد نوح، نزل أولادُ عابورا ـ وقيل: عامورا بن سويل[٤] بن يافث بن نوح، وقيل: عامورا بن يافث ـ عن يسار المشرق ويمينه، وانتشروا في تلك النواحي، ووصلوا إلى جبل القبق[٥]، وانقسموا عدّة ممالك، منهم التّرك ـ قال الجوهري: وهم جيلٌ من الناس[٦] ـ فنزلوا براري عن يمين المشرق، وامتدُّوا إلى الشمال، وكان مَلِكُهم في ذلك الزمان يقال له: زنجان، ثم صار اليوم خاقان، ومنهم: أفراسياب التركي المتغلِّب على أرض فارس، وكلُّهم من ولد عامورا.

ثم من أولاد عامورا: الدَّيلم، والأكراد، واللان، والخَزَر، وأهل مملكة السّرير، وكذا النازلون على بحر الخَزَر والبُرْغَز والصُّغْد والأُشْروْسَنَة، وهم بين بُخارى وسَمَرْقَنْد والجبل، ويسكنون جِيلان، وليس فيهم أقوى شوكةً من الترك.

وسار مع أولاد عامورا طائفةٌ، فنزلوا في تخوم الهند وبلاد التُّبَّت، وبَنَوْا للملك مدينةً عظيمة وسمَّوها أنموا، وبينها وبين البحر الشرقي ـ وهو بحر الصين ـ ثلاثةُ أشهر عمائر متصلة، ومصَّروا الأمصار، وعَمَروا المدن.

وأولُ ملوك بني عامورا: انسطوناس بن باعورا بن بريح[٧] بن عامورا بن سويل بن

---

(١) انظر تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨٠، ومروج الذهب ١/ ٢٨٦، والبدء والتاريخ ٤/ ١٩، ومعجم البلدان ٣/ ٤٤٠ (الصين)، وآثار البلاد للقزويني ص٥٣، والروض المعطار ص٣٧٠.

(٢) الصحاح (صين).

(٣) انظر تاريخ اليعقوبي ومعجم البلدان، فقد نسبه ياقوت إلى الزجاجي.

(٤) في مروج الذهب ١/ ٢٨٦: سوبيل.

(٥) في النسخ: الفتح، والمثبت من مروج الذهب ١/ ٢٨٧، وضبطه ياقوت في معجم البلدان ٤/ ٣٠٦ (قبق) بفتح أوله وسكون ثانيه وآخره أيضاً قاف.

(٦) الصحاح (ترك).

(٧) في مروج الذهب ١/ ٢٩٠: نسطرطاس بن باعور بن مدتج.

يافث بن نوح، أقام بأنموا حاكماً عليهم نيفاً وثلاث مئة سنة ثم مات.

وملك بعدَه ابنُه غرون[١]، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وتركه على سرير من الذهب مُرصَّع بالجواهر، وكان يجلس دون مجلس أبيه، وأقام يسجُد للتمثال هو وأهلُ مملكته خمسين ومئتي سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده عيثرون[٢]، ففعل بأبيه ما فعل أبوه بجدِّه، وأقام مئتي سنة، ثم مات.

وملك بعده ولده عيتبان[٣]، ففعل بأبيه كذلك، وأقام ملكاً أربع مئة سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده خرابان[٤]، ويقال: إنه أول مَن عَمِل المراكب بالصين وبعث بها إلى الأمصار، وجلب إليه التجارُ الأمتعةَ من الدنيا، وملك مئتي سنة، ثم مات.

فملك بعده ولده يونان[٥]، فبنى هيكلاً عظيماً ورصَّعَه بالجواهر، وبنى فيه بيوتَ العبادات، ونقل أجسام آبائه وأجداده إليه، وجعلهم في قُبَّةٍ لها طاقات، وأمر بتعظيمها، وجمع خواصَّ مملكته، وقال: الرأي أن نجمع الناس على مِلَّةٍ وديانةٍ يرجعون إليها، فإن الملك متى عَدِم شريعة[٦] دخل عليه الخلل، ولم يأمَنِ العِثارَ.

فرتَّب لهم شريعةً عقليةً، وفرض عليهم فرائضَ جعلها رِباطاً، ورتَّبَ المناكح، والقصاص في النفوس، على حسب ما وردت به الشرائعُ، وجَعل عليهم صلواتٍ مفروضةً لخالقهم في اليوم والليلة، وفيها ركوعٌ وسجودٌ يختصان بأزمنةٍ، وأوجب الحدَّ على الزاني والزانية، وأقام للكواكب أبْخِرةً من العقاقير[٧].

وساس الناسَ سيرةً عادلةً، فأحبَّه الناس، واعتقدوا فيه. وعاش مئةً وخَمسين سنة ثم مات، فجَزِعُوا عليه جَزَعاً عظيماً، وجعلوه في تابوت من الذهب ورصَّعوه بالجواهر

(١) في مروج الذهب ١/ ٢٩٠: عوون، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨٠: عرون.

(٢) في مروج الذهب ١/ ٢٩١: عيثدون.

(٣) في مروج الذهب ١/ ٢٩١: عيثنان، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨٠: عينان.

(٤) في مروج الذهب ١/ ٢٩٢: حراتان، وفي تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨١: خرابات.

(٥) في تاريخ اليعقوبي ١/ ١٨١، ومروج الذهب ١/ ٢٩٣: توتال.

(٦) في (خ) و (ك): شريعته، والمثبت من (ب) ومروج الذهب ١/ ٢٩٥.

(٧) في مروج الذهب ١/ ٢٩٦: وأمرهم بقرابين الهيكل، ودخن وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه بدخن معلومة بأنواع الطيب والعقاقير محصورة.

النَّفيسة، وبَنَوا له هيكلاً عظيماً على حِدَةٍ، وزيّنوه بأنواع اليواقيت، وبَنَوه على هيئة الكواكب السَّبعة، وجعلوا له عيداً يجتمعون إليه فيه مثلَ يوم وفاتِه، وصَوَّروا صورتَه وما شرعه في لوحٍ من ذهب، وجعلوه في أعلى الهيكل، وكتبوا اسمه وما فعل على أبواب المدن والدنانير والدراهم والفلوس وذلك بمدينة أنموا.

ولما مات اختلفت الآراءُ والنِّحل والممالك بعده، إلا أنهم مع اختلافهم لم يخرجوا عن قضية العقول في نَصْب القُضاة والعدل، والنظر في أمور الخواصِّ والعوام.

فروي أن بعض التجار قصد بعض ملوكهم بهدية، فأخذها منه بعض الخدم، ودَفَع له ثمناً بَخْساً وظلمه، فأحضر الملكُ التاجرَ وسأله، فقال: إنما قَصَدْتُ بالهديَّةِ الملكَ، فقطع عليَّ الخادمُ الطريقَ وظلمني، فدعا بالخادم، وقال له: وَيْلَك، عَمَدْت إلى رجلٍ قَصَدنا، وخاطر بنفسه يُؤمِّلُ فَضْلَنا، ثقةً بكرمنا وعدلنا، يرجو إحساننا، ففعلتَ في حقِّه ما فعلتَ، فما الذي أمَّنَك أن ينصرف عنا فيسيء الأُحدوثة والسيرة؟ أما والله لولا سابقُ خِدمتك لنَكَّلْتُ بك، ولكن قد جَعلتُ عقوبتك ولايةَ قبور الموتى لما عَجزت عن سياسة الأحياء، ثم أعطى التاجر أضعافَ ما كان يظنُّ وقرَّبه[1].

وأهلُ الصين قبائلُ وأفخاذ وشعوب مثل العرب، ويَعتنون بالأنساب، وربما انتسب الرجلُ منهم إلى خمسين أب حتى يصل إلى عامورا.

واقعة جرت بالصين

قال علماءُ السِّير: كان بالبصرة رجلٌ من ولد هبَّار بن الأسود، فلما دخل الزَّنْج البصرة، ركب البحر هارباً منهم، فلم يزل ينتقلُ من بحر إلى بحر وبلدٍ إلى بلد حتى وصل إلى الصين، إلى مدينة يقال لها: خانقوا[2]، وبلغ الملكَ خبرُه، فاستدعاه، وقال: مَن أنت؟ قال: أنا رجل من العرب، من ولد صاحبٍ لرسول الله ﷺ. فقال له: كيف قهرتِ العربُ العجمَ مع ضعفهم وقوة العجم؟ فقال: إنما قهروهم بالله تعالى. فقال: لقد غلبت العربُ على أجلِّ الممالك وأوسعِها، وأعقلها رجالاً وأبعدِها صيتاً.

---

(١) ذكرها المسعودي في مروج الذهب ١/ ٣٠٧ـ٣١٢ بأطول مما هنا.

(٢) في مروج الذهب ١/ ٣١٣: خانفوا، قال القلقشندي في صبح الأعشى ٤/ ٤٨٣: بخاء معجمة وألف ونون وقاف ثم واو، وهي مدينة على النهر.

ثم قال: ما منزلةُ الملوك عندكم؟ قلت: لا أدري. قال الملك: أما نحن فنعدُّ الملوك خمسة: فأوسعُهم ملكاً ملك العراق؛ لأنه وسط الدنيا والملوك به محدقة، وبعده ملِكُنا، وبعد ملكنا ملكُ السِّباع، وهو ملك الترك الذي يلينا وهم سباع الإنس، وبعده ملك الفِيَلة وهو ملك الهند والحكمة، وبعده ملك الروم، وهو ملك الرجال.

ثم قال: أتعرف صاحبَك ـ يعني النبي ﷺ ـ إن رأيته؟ قال الرجل: فقلت: كيف ترينيه وهو عند الله تعالى؟ فقال: إنما أردتُ صورتَه. ثم أخرج لي دُرْجاً فيه صفةُ الأنبياء وعلى صورة كلِّ نبيٍّ اسمُه، وإذا نوح عليه السلام في سفينة، فقلت: الحمد لله الذي أغرق أهل الأرض ونجاه، فضحك وقال: لا نعرف غرقَ الأرض، ولا وصل إلينا ولا إلى الهند والسِّند، ولا نقله إلينا أسلافُنا. قال: ورأيتُ موسى عليه السلام وبيده العصا، وعيسى عليه السلام على حمارٍ، ونبينا ﷺ[1] على جمل، وعند كلِّ نبيٍّ نسبُه وعمرُه وبلدُه وسيرتُه. ورأيتُ حول نبينا ﷺ أصحابه وفي أوساطهم حبال الليف، وقد علَّقوا فيها المساويك، وفي أرجلهم نِعالٌ من جلود الإبل، فبكيت، فقال: ما يبكيك؟ فلقد ملك نبيكم أجلَّ الممالك، غير أنه لم يُعاين ذلك، وإنما عاينه مَن بعده.

ثم قال: ما تقولون في عُمر الدنيا؟ فقلت: قد اختلف الناس في ذلك، فمن قائل: سبعة آلاف سنة، وقائل: ستة آلاف. فقال: عمَّن تنقل هذا، عن نبيك؟ فغلطت وقلت: نعم. فضحك ضحكاً عالياً، وضحك وزيرُه أيضاً، وقال: ما أحسب نبيَّكم قال هذا، قلت: بلى، فرأيت أثر الكآبة على وجهه، وقال: ميِّز كلامك، فإن الملوك لا يُخاطَبون إلا عن تحقيق، وما تقولُه الأنبياء فمُسلَّم لهم لا يُختَلَف فيه، وهذا مُختلَف فيه، فإياك أن تحكيَ عن نبيِّك مثلَ هذا، فإنه لا يقوله.

قلت: لله درُّ هذا الملك، ما كان أعقله وأبصره بحقائق الأشياء، فإنه لم يَثبُت عن نبينا ﷺ في هذا الباب شيء، وقد ذكرناه في خطبة الكتاب[2]، وإنما الجاهل الذي هو من ولد هبَّار الذي عَرَّض نبيَّنا ﷺ لمثل هذا، ولكن الله أنطق الملكَ بالحق، معجزةً لنبينا ﷺ.

---

(١) في (خ) زيادة: وزاده فضلاً وشرفاً إلى يوم القيامة.

(٢) في فصل انقضاء مدة العالم، وقد ذكر المسعودي ١/ ٣١٢ـ٣٢١ هذه القصة مطولة.